شرح كتاب (عقيدة السلف وأصحاب الحديث) لأبي عثمان الصابوني-رحمه الله.

شرح فضيلة الشيخ

أ.د. أحمد بن عبدالرحمن القاضي

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس (١٤)

الشفاعة / الحوض والكوثر/ رؤية المؤمنون ربهم في الآخرة

قال أبو عثمان الصابوني - رحمه الله:

ويؤمن أهل الدين والسنة بشفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم لمذنبي أهل التوحيد، ومرتكبي الكبائر، كما ورد به الخبر الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أخبرنا أبو سعيد بن حمدون، أنبأنا أبو حامد بن الشرقي، حدثنا أحمد بن يوسف السلمي، حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن ثابت، عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)).

وأخبرنا أبو علي زاهر بن أحمد قال: أخبرنا محمد بن المسيب الأرغياني قال: حدثنا عبد السلام بن حرب الملائي، عن زياد بن خيثمة، عن نعمان بن قراد، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((خيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل شطر أمتي الجنة، فاخترت الشفاعة؛ لأنها أعم وأكفى، أتروها للمؤمنين المتقين لا، ولكنها للمذنبين المتلوثين الخطائين)).

أخبرنا أبو محمد المخلدي، قال: أخبرنا أبو العباس السراج، قال: حدثنا كتيبة بن سعيد، قال: حدثنا عبد العزيز بن محمد الداوردي، عن عمرو بن أبي عمرو (ح) وأخبرنا أبو طاهر بن خزيمة، قال: أخبرنا جدي الإمام محمد بن إسحاق بن خزيمة، قال: حدثنا علي بن حجر، حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن عمرو بن أبي عمرو، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله من أسعد الناس

بشفاعتك يوم القيامة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((فقد ظننت أنه لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرسك على الحديث، إن أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصة من قبل نفسه)).

الشفاعة هي سؤال الخير للغير، وهي ما نسميه في لغة العصر الواسطة، ولنبينا صلى الله عليه وسلم يوم القيامة شفاعات متعددة منها ما يختص به، ومنها ما يشاركها فيه غيره، فأعظم الشفاعات التي تكون لنبينا صلى الله عليه وسلم هي الشفاعة العظمى والمقصود بها الشفاعة لأهل الموقف أن يقضى بينهم، وهي المقام المحمود التي قال الله عنه: { وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا }، وقد فسرها النبي صلى الله عليه وسلم بالحديث الطويل الذي في ((صحيح البخاري)): ((أن الناس يوم القيامة إذا طال بهم الموقف قال بعضهم لبعض: ألا ترون ما نحن فيه، فيأتون إلى آدم لكونه أبا البشر عليه السلام، فيقول: أنت آدم خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته، ألا ترى ما نحن فيه، اشفع لنا عند ربك، فيقول عليه السلام: إني قد أكلت من الشجرة أستحي، ولكن اذهبوا إلى نوح فإنه أول رسول أرسله الله، فتأتي الخلائق إلى نوح، فيقولون له: أنت نوح أول رسول أرسله الله إلى الناس، ألا ترى ما نحن فيه اشفع لنا عند ربك، فيقول عليه السلام: إني قد قلت إني ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين)) يعني فإني أستحي أن أشفع وقد عتب الله عليه وقال: { يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ } إلى أن قال: { إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ }، ((ولكن آتوا إبراهيم فإنه خليل الرحمن، فيأتون إلى إبراهيم، فيقولون: أنت خليل الرحمن ألا ترى ما نحن فيه اشفع لنا عند ربك، فيقول: إني كذبت ثلاث كذبات اثنتان منهم في ذات الله)) يعني قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعلهم كبيرهم، وأما الثالثة لما قال لجبار من الجبابرة عن زوجه سارة: إنها أختي لكي لا يقتله، ((فأستحي أن أشفع ولكن آتوا موسى فإنه كليم الرحمن، فيأتون موسى عليه السلام فيقولون له: أنت موسى كلمك الله وكتب لك التوراة بيده فاشفع لنا عند ربك ألا ترى ما نحن فيه، فيقول: إني قتلت نفسًا، فأستحي أن أشفع عند الله، ولكن آتوا عيسى فإنه يبرئ الأكمه والأبرص، وذكر من صفاته، فتأتي الخلائق إلى عيسى، فيقولون له ذلك: فلا يذكر ذنبًا عليه السلام)) ليكون كما قال العلماء: كالتوطئة لنبينا صلى الله عليه وسلم، ((ولكن آتوا محمدًا فإنه خاتم الأنبياء والمرسلين))، وذكر من مناقبه، فتنجفل الخلائق كلها إلى نبينا صلى الله عليه وسلم،

فيقولون له: ما قيل لهم، فيقول نبينا صلى الله عليه وسلم: ((أنا لها أنا لها))، ثم يقوم، يقول: ((فأقوم فآتي فأسجد تحت العرش، ويفتح الله علي بمحامد لا أحسنها الآن، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك وسل تعطى واشفع تشفع، فأقول: يا ربي أمتي أمتي))، فهذا هو معنى قوله في الحديث الذي مر بنا آنفًا: ((إني خيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل شطر أمتي الجنة، فاخترت الشفاعة)) فيشفع النبي صلى الله عليه وسلم لعموم الخلائق بأن يقضى بينهم وأن يفصل بينهم، ويكون البادئ بأمة محمد ولهذا قال: ((نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة)) فهذه شفاعة خاصة لنبينا صلى الله عليه وسلم، ومما اختص به من الشفاعات أنه أول من يدخل الجنة، فلا يدخل أهل الجنة إلا به، فقد جاء في الحديث: ((آتي باب الجنة فأستفتح، فيقول الخازن: من، فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت ألا أفتح لأحد قبلك)).

وأما الشافعة الخاصة الثالثة: فهي شفاعته صلى الله عليه وسلم في عمه أبي طالب، وهذه لا نظير لها؛ لأن الله قد قال عن المشركين: { فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ }، فقد قال العباس بن عبد المطلب لنبينا صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله إن عمك أبا طالب، كان يحوطك في الدنيا ويدفع عنك، فهل نفعته بشيء؟ قال: ((نعم، وجدته في الدرك الأسفل من النار، فأخرجته إلى دحداح من نار، تحت قدميه نعلان يغلي منهما دماغه))، وفي رواية: ((تحت قدميه جمرتان، يغلي منهما دماغه، وإنه ليظن أنه أشد أهل النار عذابًا، وإنه لأخفهم عذابًا)) — والعياذ بالله — فشفاعته فيه لا تخرجه من النار، ولكن تخفف عنه العذاب.

ثم هناك شفاعات مشتركة بين النبي صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء والملائكة والصالحين والشهداء، حتى السقط يشفع في أبويه، والشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته، فمن أنواع تلك الشفاعات: الشفاعة فيما استحق النار من عصاة الموحدين، من أهل الكبائر ألا يدخلها، والشفاعة فيمن دخل النار من عصاة الموحدين أن يخرج منها، فهذه يثبتها أهل السنة والجماعة، بالأحاديث المتواترة حتى قال ابن حجر رحمه الله في ذكر الأحاديث المتواترة:

مما تواتر حديث من كذب ... ومن بنى لله بيتًا واقترب
ورؤية وشفاعة والحوض ... ومسح خفين وهذه بعضه

فهذه قد ثبتت بالتواتر الذي يفيد العلم القطعي الضروري، فأهل السنة والجماعة يثبتون الشفاعة للنبي صلى الله عليه وسلم، ولمن شاء الله تعالى من المرسلين والملائكة والصالحين والشهداء وغيرهم، فالشفاعة ثابتة خلافًا للمعتزلة والخوارج الذي ضيقوا رحمة الله وأنكروا الشفاعة.

ثم بعد الشفاعة يقول الرب عز وجل: ((شفعت الملائكة وشفع النبيون ولم يبقى إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيجعلهم في الجنة))؛ لأن الله تكفل بالجنة بملئها، وللنار بملئها، فأما النار فلا يزال يلقى فيها وهي تقول: هل من مزيد، فيضع الرب عليها رجله، وفي رواية: عليها قدمه فينكفئ بعضها على بعض، وتقول: قط قط، يعني امتلأت، فتقتظ بأهلها وتستك عليهم – والعياذ بالله –.

وأما الجنة فيبقى فيها مجال ليس فيها أحد، فينشئ الله خلقًا فيسكنهم فيها بفضله ورحمته، ثم قال رحمه الله:

ويؤمنون بالحوض، والكوثر، وإدخال فريق من الموحدين الجنة بغير حساب، ومحاسبة فريق منهم حساباً يسيراً، وإدخالهم الجنة بغير سوء يمسهم، وعذاب يلحقهم، وإدخال فريق من مذنبيهم النار، ثم إعتاقهم وإخراجهم منها، وإلحاقهم بإخوانهم الذين سبقوهم إلى الجنة ولا يخلدون في النار، فأما الكفار فإنهم يخلدون فيها ولا يخرجون منها أبداً، ولا يترك الله فيها من عصاة أهل الإيمان أحداً.

مما يجب الإيمان به، مما يقع في عرصات القيامة أي مواقف الحساب الحوض المورود لنبينا صلى الله عليه وسلم، وقد وصفه النبي صلى الله عليه وسلم بأنه أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، وريحه أطيب من ريح المسك، وعدد كيزانه عدد نجوم السماء، وأن من شرب منه شربة واحدة لم يظمأ بعدها أبدًا، وأن طوله شهر، وعرضه شهر، يعني كل زاوية من زواياه مسيرة شهر، فإذا قام الناس من قبورهم، وقد دنت الشمس منهم قدر ميل أو ميلين فإنهم يعرقون عرقًا شديدًا حتى إن العرق ليسيخ في الأرض سبعين ذراعًا، ومنهم من يطفوا العرق عليه حتى يبلغ الكعبين، ومنهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم من يبلغ حكويه يعني خسره، ومنهم من يبلغ ثدييه، ومنهم من يبلغ ترقوته، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا بحسب أعمالهم وحالهم في الدنيا، فيكونون في غاية العطش، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((أنا فرطكم على الحوض)) فرط القوم هو سابقهم إلى مورد الماء، ((أنا فرطكم على الحوض))، فتقبل أمته عليه، فيناولهم الكؤوس فيشربون حتى إن الصحابة قالوا: يا رسول الله كيف تعرفنا من بين

الأمم، قال: ((بالغرة والتحجيل))، يعني آثار الوضوء – نسأل الله من فضله – فيكون كالبياض في الجبين وفي الأطراف كما الخيل إذا كان أغر محجل تكون قوائمه فيها بياض وجبهته فيها بياض، كذلك يعرف النبي صلى الله عليه وسلم أمته يوم القيامة بالغرة والتحجيل، فمن شرب شربًا لم يظمأ بعدها أبدًا هذا هو الحوض.

وأما الكوثر فنهر أعطاه الله تعالى إياه في الجنة ويصب منه ميزابان في حوض النبي صلى الله عليه وسلم في عرصات القيامة، ثم إن المصنف ذكر ما سبق أن ذكرناه من أنواع الحساب من عرض ومناقشة وأن من المؤمنين من يدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب وهم السبعون ألفًا الذين قال عنهم النبي صلى الله عليه وسلم: ((هم الذي لا يسترقون، ولا يكتون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون)) فهؤلاء يدخلون الجنة لكمال توكلهم على الله بلا حساب ولا عذاب.

وأما المعتزلة والوعيدية عمومًا من الخوارج والمعتزلة فقد أنكروا الشفاعة، وقالوا: لا شفاعة، وحكموا على مرتكب الكبيرة بأنه مخلد في النار – والعياذ بالله – أما أهل السنة والجماعة فيعتقدون أن مرتكب الكبيرة في الدنيا يعد مؤمنًا، لكنه مؤمن ناقص الإيمان، لا كالمؤمنين الخلص كامل الإيمان، فيقال عنه مؤمن ناقص الإيمان أو يقال عنه: مؤمن فاسق أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، لكنهم لا يزيلون عنه وصف الإيمان، يعني لا يقولون عن شارب الخمر وآكل الربا والزاني لا يقولون عنه كافر، لكن يقولون: ناقص الإيمان.

وماذا في الآخرة، يقولون: هو في الآخرة تحت المشيئة والإرادة، إن شاء الله تعالى عذبه بقدر ذنبه ومآله إلى الجنة، وإن شاء عفا الله عنه مجانًا وأدخله الجنة، هذا معنى قول الله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء }. أما الوعيدية: فإنهم يحكمون على مرتكب الكبيرة بأنه مخلد في النار.

ثم انتقل إلى مسألة أخرى فقال:

ويشهد أهل السنة أن المؤمنين يرون ربهم تبارك وتعالى بأبصارهم وينظرون إليه على ما ورد به الخبر الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: ((إنكم ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر))،

والتشبيه وقع للرؤية بالرؤية لا للمرئي بالمرئي، والأخبار الواردة في الرؤية مخرجة في كتاب ((الانتصار)) بطرقها.

هذه من العقائد الثابتة عند أهل السنة والجماعة، وهي إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة عيانًا بأبصارهم فيعتقد أهل السنة والجماعة أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة في موضوعين: في عرصات القيامة يعني في مواقف الحساب كما دل على ذلك حديث أبي هريرة وحديث أبي سعيد في ((صحيح البخاري))، ويرونه في الجنة ويتمتعون بالنظر إليه، وقد دل على إثبات الرؤية الكتاب والسنة والإجماع.

فأما الكتاب: فمن أوضح أدلته قول الله عز وجل: { وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ } ونظر إذا تعتد بـــ (إلى) فإنها تعني النظر بالأبصار، وإذا تعتد بـــ (في) نظرت في فهي تدل على التفكر والاعتبار، وإذا كانت لازمة غير متعدية فإنها تدل على التريث والانتظار، هذه هي قاعدة اللغة العربية: أن (نظر) إذا جاءت مطلقة فإنها تدل على التريث والانتظار نظرته وأنظرته، وإذا كانت متعدية بـــ (في) كقولك: نظرت في الأمر، فهي تدل على التدبر والاستبصار، وإذا جاءت متعدية بـــ(إلى) كما في الآية التي تلونا فهي تدل على المعاينة بالأبصار.

فقوله: { إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ } المقصود بذلك النظر بالأعين إلى وجه الله الكريم، ومما يدل على ذلك في القرآن: {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ } فسر النبي صلى الله عليه وسلم الزيادة بأنها النظر إلى وجه الله الكريم، وفسر أبو بكر رضي الله عنه قول الله تعالى: { لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ } بأن المزيد النظر إلى وجه الله الكريم، واستنبط الإمام الشافعي وغيره رحمهم الله بقول الله تعالى: { عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ } أن المقصود أنهم ينظرون إلى وجه الرب، كيف استنبط ذلك؟

قال: إنه قد قال في شأن الفجار { كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ } فلما حجب أولئك في السخط نظر أولئك في الرضى، وهذا مأخذ لطيف دقيق يدل على عمق الفقه.

وأما في السنة: فقد تواترت الأحاديث في إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة: ((إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، لا تُضامون في رؤيته - أو لا تَضامون في رؤيته -)) لا تُضامون: أي لا يلحقكم ضيم وذل وقهر، أو لا تَضامون: أي لا ينضم بعضكم إلى بعض وتتزاحمون، فالناس إذا رأوا القمر ليلة البدر لا يتزاحمون عليه، وليس فيه منة كل متاح له أن ينظر إليه، فالمؤمنون يرون ربهم يوم القيامة على هذه الحالة الكريمة، لا يضامون ولا يتضامون، وهذا كما نبه تشبيه للرؤية بالرؤية لا للمرئي بالمرئي ليس هذا من تشبيه الله بالقمر أو تشبيه القمر بالله — حاشا وكلا — الله ليس كمثله شيء، وإنما من تشبيه الرؤية بالرؤية، وبين أنه قد حشد الأدلة الدالة على إثبات الرؤية في كتاب له اسمه كتاب ((الانتصار)) وأحاديث الرؤية بحمد الله تعالى كثيرة ومتواترة.

وإنما أنكر الرؤية المعتزلة، والرافضة، وبعض أهل الأهواء والبدع، أنكروا رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، واستدلوا بقول الله تعالى: { لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ } ويجاب عن هذا الاستدلال بأن نفي الإدراك لا يتضمن نفي الإحاطة، فأنت قد ترى الشيء ولا تدركه تنظر إلى القمر ولا تدركه تفاصيله، تنظر إلى الجبل ولا تدرك تفاصيله، فليس نفي الإدراك يقتضي نفي الرؤية، يمكن أن ترى ولا تدرك، وأجابت عائشة فيه: أن لا تدركه الأبصار يعني في الدنيا.

كما استدل نفات الرؤيا بقول الله تعالى لموسى عليه السلام: { لَن تَرَانِي وَلَـكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ} والجواب عن هذا بأن { لَن تَرَانِي } يعني في الدنيا فلا يكون لك طاقة برؤيتي في الدنيا، أما يوم القيامة فإن الله يهب المؤمنين من القوة ما تمكنهم من الاستمتاع بالنظر إلى وجه الله الكريم، ولن وإن كانت أداة نفي لكنها لا تفيد النفي المؤبد، كما قال ابن مالك في ألفيته:

ومن قال بلن النفي المؤبد ... فقوله اردد وسواه فاعضض

فالمقصود أنه يجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يعتقد بأن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة عيانًا بأبصارهم، وقد أنشد ابن القيم في هذا أبياتًا لطيفة يقول فيها:

فيا نظرت أهدت إلى الوجه نضرة ... أمن بعدها يسلوا المحب المتيموا
ولكننا سبي العدو فهل ترى ... نرد إلى أوطاننا ونسلم

ولكننا سبى العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم
وقد زعموا أن العدو إذا نأى وشطت به أوطانه فهو مغرم
وأي اغتراب فوق غربتنا التي لها أضحت الأعداء فينا تحكم
فحي على جنات عدن فإنها منازلنا الأولى وفيها المخيم

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.